

العلاقة بين الكلمة والنغم في الفكر الصوفي (مقاربة الفن كقيمة)

عاطف وفدي

الكلمات المفتاحية: عاطف وفدي، العلاقة بين الكلمة والنغم في الفكر الصوفي، القرآن، النغم، الشعر، الأدب.

القرآن

فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِي بَيْئَةٍ جُلَّ أَهْلِهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ وَأَرْبابِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، لِذَا فَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مُعْجِزًا فِي تَرَاكِيْبِ أَلْفَاظِهِ وَانْسِجَامِ مَعَانِيهِ وَاتِّسَاقِ كَلِمَاتِهِ وَجَمَالِ لَعْنَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ تَحَدَّى أَرْبابَ اللُّغَةِ وَفَحَوْلَهَا وَمَنْ مَلَكَوا نَوَاصِيهَا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَوْ حَتَّى بَعْضِهِ، الْأَمْرَ الَّذِي يَضَعُنَا مِنْذُ بَدَايَةِ الدَّعْوَةِ عَلَى حَقِيقَةِ غَايَةِ فِي الْخَطُورَةِ وَالْأَهْمِيَةِ، أَلَا وَهِيَ أَنَّ الْفِظَ الْقُرْآنِيَّ قَدْ اِحْتَوَى . ضَمَّنَ مَا حَوَى . عَلَى جَمَالٍ وَاتِّسَاقٍ وَتَنَاعُمٍ وَمَوْسِيقَى دَاخِلِيَّةٍ خَلَبَ الْأَبْجَابَ وَتَأَسَّرَ الْقُلُوبَ ؛ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ قَوِيَّةٍ وَرَابِطَةٍ مَتِينَةٍ مَا بَيْنَ النَّصِّ الدِّينِيِّ بِصِفَةِ عَامَّةِ الْقُرْآنِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ وَمَا بَيْنَ الْفَنِّ بِمَعْنَاهِ الْقِيَمِيِّ الْمَطْلُوقِ، لَا مَعْنَاهِ الْمَتَدِيِّ الَّذِي ارْتَبَطَ بِالْفَوْضُوِيَّةِ وَالْعَبَثِيَّةِ وَالسَّدَاجَةِ وَالسَّطْحِيَّةِ ..

لِذَا .. فَإِنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى تَنَاعُمٍ فِي أَلْفَاظِهِ يَحْدِثُنَا عَنْهُ الزَّرْقَانِيُّ فَيَقُولُ : ... مَا فِيهِ مِنَ الْأَسَالِيْبِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْمَوْسِيقَى اللَّفْظِيَّةِ أَمْرٌ فَاقَ كُلَّ فَوْقٍ وَخَرَجَ عَنْ كُلِّ طَوْقٍ وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قَطَعْتَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بِلِ اللَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا ¹ .

ويقول : مسحة القرآن اللفظية ؛ فإنها مسحة خلاصة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن واثتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكناته اتساقاً عجيباً واثتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوئ النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنتور ² .

ثم يُدَلِّلُ الزَّرْقَانِيُّ عَلَى ذَلِكَ التَّنَاعُمِ وَتِلْكَ الْمَوْسِيقَى الْمَوْجُودَةِ فِي تَرَاكِيْبِ الْقُرْآنِ . بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ وَجْهِ إِعْجَازِهِ الْآخَرَى . فَيَقُولُ : **وَبَيَانُ ذَلِكَ** : أَنَّ مَنْ أَلْقَى سَمْعَهُ إِلَى مَجْمُوعَةِ الْقُرْآنِ الصَّوْتِيَّةِ وَهِيَ مَرْسَلَةٌ عَلَى وَجْهِ السَّدَاجَةِ فِي الْمَوَاءِ مُجَرَّدَةٌ مِنْ هَيْكَلِ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ : كَأَنَّ يَكُونُ السَّمَاعُ بَعِيدًا عَنِ الْقَارِئِ الْمَجْزُودِ بِحَيْثُ لَا تَبْلُغُ إِلَى سَمْعِهِ الْحُرُوفُ وَالْكَلِمَاتُ مَتَمِيمًا بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، بَلْ يَبْلُغُهُ مُجَرَّدُ الْأَصْوَاتِ السَّادِجَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الْمَدَّاتِ وَالْغُنَّاتِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَالِاتِّصَالَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ؛ نَقُولُ : إِنَّ مَنْ

1- مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني (دار الفكر - بيروت 1996 م .. الطبعة الأولى)

أَلْقَى سَمْعَهُ إِلَى هَذِهِ الْجُمُوعَةِ الصَّوْتِيَةِ السَّادِجَةِ يَشْعُرُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَوْ كَانَ أَعْجَمِيًّا لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ بِأَنَّهُ
أَمَامَ لَحْنٍ غَرِيبٍ وَتَوْقِيعٍ عَجِيبٍ يُفُوقُ فِي حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ كُلَّ مَا عَرَفَ مِنْ تَوْقِيعِ الْمَوْسِيقَى وَتَرْزِيمِ الشُّعْرِ ؛
لَأَنَّ الْمَوْسِيقَى تَتَشَابَهُ أَجْرَاسُهَا وَتَتَقَارِبُ أَنْغَامُهَا فَلَا يَفْتَأُ السَّمْعُ أَنْ يَمْلِكَهَا وَالطَّبِيعُ أَنْ يَمُجِّهَا، وَلِأَنَّ الشُّعْرَ
تَتَّحِدُ فِيهِ الْأَوْزَانُ وَتَتَشَابَهُ الْقَوَائِي فِي الْقَصِيدَةِ الْوَاحِدَةِ غَالِبًا وَإِنْ طَالَتْ عَلَى نَمَطِ يورث سامعه السَّامِ
وَالْمَلِكِ، بَيْنَمَا سَامِعَ لَحْنِ الْقُرْآنِ لَا يَسَامُ وَلَا يَمَلُّ ؛ لِأَنَّهُ يَتَنَقَّلُ فِيهِ دَائِمًا بَيْنَ أَلْحَانٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَنْغَامٍ مُتَّجِدَةٍ
عَلَى أَوْضَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ يَهَيِّزُ كُلُّ وَضْعٍ مِنْهَا أوتار القلوب وأعصاب الأفتدة ³ .

ويؤكِّد الزرقاني على أنَّ ذلك التناغم اللفظي كان أوَّل شيءٍ اسْتَرْعَى انتباه أهل مكة فيقول : وهذا
الجَمَالُ الصَّوْتِيُّ أَوْ النِّظَامُ التَّوْقِيعِيُّ هُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ الْأَذَانُ الْعَرَبِيَّةُ أَيَّامَ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَلَمْ تَكُنْ عَهْدَتْ
مِثْلَهُ فِيمَا عَرَفَتْ مِنْ مَنْثُورِ الْكَلَامِ سِوَاءِ أَكَانَ مُرْسَلًا أَمْ مَسْجُوعًا ⁴ .

ولِذَا فَإِنَّا بَجْدِ رَجُلًا مُمَعِنًا فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُمَ إِعْجَابَهُ بِمَا
اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ جَمَالٍ وَتَنَاطُغٍ وَاتِّسَاقٍ حَيْثُ قَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لِحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً،
وَإِنَّهُ لَمُنِيرٌ أَعْلَاهُ مُشْرِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ ⁵ .

ولقد أَحْسَنَ الزرقاني حينَ أبانَ أنَّ ذلك الإبداعَ الموجدَ في القرآن الكريم هو واحدٌ من أهمِّ عوامل
حِفْظِهِ وَبِقَائِهِ ؛ يَقُولُ الزرقاني : وَمِنْ عَجِيبٍ أَمْرٌ هَذَا الْجَمَالِ اللَّغَوِيِّ وَذَلِكَ النِّظَامِ الصَّوْتِيِّ أَنَّهُمَا كَمَا كَانَا
دَلِيلَ إِعْجَازٍ مِنْ نَاحِيَةِ كَانَا سُورًا مُنِيْعًا لِحِفْظِ الْقُرْآنِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْجَمَالِ
اللَّغَوِيِّ وَالنِّظَامِ الصَّوْتِيِّ أَنْ يَسْتَرْعِيَ الْأَسْمَاعَ وَيُشِيرُ الْإِنْتِبَاهَ وَيُحَرِّكُ دَاعِيَةَ الْإِقْبَالِ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ إِلَى هَذَا
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِذَلِكَ يَبْقَى أَبَدَ الدَّهْرِ سَائِدًا عَلَى أَلْسِنَةِ الْخَلْقِ وَفِي آذَانِهِمْ، وَيُعْرِفُ بِذَاتِهِ وَمَزَايَاهُ بَيْنَهُمْ
فَلَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ وَتَبْدِيلِهِ ؛ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } ^{6 7}

وعلى الرغم من إعجاز القرآن في ذاته وعلى الرغم من وجود ذلك التناغم وتلك الموسيقى في كُلِّ
كَلِمَةٍ بَلَّ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ إِلَّا أَنَّنَا نَجِدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ فِي أَحَادِيثٍ كَثِيرَةٍ بِتَحْسِينِ
الصَّوْتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ..

3- المرجع السابق : 222/2

4- المرجع السابق : 222/2

5- المرجع السابق : 224/2 وقال : رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخاري .

6- سورة الحجر الآية 9

7- مناهل العرفان للزرقاني (مصدر سابق) 224/2

فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ { حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ؛ فَإِنَّ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا }⁸ .

وقال صلى الله عليه وسلم قال { مَا يَأْذِنُ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَدْنَىٰ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَعَنَّيَ بِالْقُرْآنِ }⁹ .

وقال صلى الله عليه وسلم قال { لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ }¹⁰ .

وقال صلى الله عليه وسلم { لِلَّهِ أَشَدُّ أَدْنًا بِالرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ قَيْنَةٍ إِلَىٰ قَيْنَتِهِ }¹¹ .

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ فَاسْتَمَعَ إِلَى قِرَاءَةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ . وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ . فَقَالَ { لَقَدْ أُوتِيَ مِرْمَارًا مِنْ مَرَامِيرِ دَاوُدَ }¹² فقال أبو موسى : " لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ حَبْرَتَهُ لَكَ تَجْبِيرًا " ¹³ أي : حَسَّنْتُهُ لَكَ تَحْسِينًا .

فَكُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ وَعَظِيمًا مِمَّا دَخِرَتْ بِهِ كُتُبُ السُّنَنِ تَدَلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ إِبْصَالَ الْمَعْنَى وَالتَّأثير فِي وَجْدَانِ الْمَسْتَمِعِ يَبْلُغُ كَمَالَهُ وَيَصِلُ إِلَى قِمَّتِهِ إِذَا وُجِدَ النَّصُّ الَّذِي يَتَّسِمُ بِالْجَمَالِ وَالتَّنَاغُمِ وَالتَّانَسُجَامِ وَالتَّاسِقِ ، ثُمَّ إِذَا وُجِدَ مَعَهُ مَنْ يَسْتَطِيعُ تَبْلِيغَهُ بِصَوْتِ جَمِيلٍ وَأَسْلُوبِ أَخْذِ وَإِحْسَاسِ بِمَا يَحْتَوِيهِ النَّصُّ مِنْ أَسْرَارٍ وَكُومَانٍ وَخَفَايَا قَدْ يَصِلُ بَعْضُهَا إِلَى قَلْبِ الْمُتَلَقِّي دُونَ الْمُرُورِ بِعَقْلِهِ ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِإِحْسَاسِهِ بِحَالَةِ تَعْتِرِيهِ قَدْ تَكُونُ شَوْقًا أَوْ أَنْسًا أَوْ اسْتِجْلَاءً أَوْ غَيْبَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا سَطَّرَهُ الصُّوفِيَّةُ فِي كُتُبِهِمْ عِنْدَ كَلَامِهِمْ عَنِ أَحْوَالِهِمْ عِنْدَ السَّمَاعِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ وَعِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مُصَدِّقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ }¹⁴ .

عَلَى أَنَّنَا إِذَا مَا بَحَثْنَا فِي دَوَابِ السُّنَنِ عَنِ تِلْكَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَالتَّنْعِيمِ فَإِنَّا نَجِدُ فِيهَا مَا يُوَكِّدُ لَنَا حَمِيمِيَّةَ تِلْكَ الْعِلَاقَةِ ، بَلْ وَيَفْتَحُ لَنَا آفَاقًا جَدِيدَةً لِلتَّأَمُّلِ وَالتَّاسْتِشْرَافِ ..

8- راجع سنن الدارمي : كتاب فضائل القرآن : باب التَّعَنِّيَ بِالْقُرْآنِ بِرَقْمِ (3365) .

9- راجع صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن : باب مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ بِرَقْمِ (4635) .

10- راجع صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى { وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ } بِرَقْمِ (6973) .

11- راجع : إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (طبعة عيسى الحلبي - القاهرة) 294/2 وعوارف المعارف للسهروردي (ملحق بإحياء علوم الدين) 145/5 .

12- راجع سنن النسائي : كتاب الافتتاح : باب تزيين القرآن بالصوت برقم (1009) .

13- أخرجه الحاكم في المستدرک (دار الكتب العلمية - بيروت 1990 م) 529/3 والبيهقي في السنن الكبرى (دار

الباز - مكة المكرمة) 12/3 وابن أبي شيبه في المصنّف (مكتبة الرشد - الرياض 1409 هـ) 119/6

14- سورة المائدة من الآية 83

فَقَدْ رَوَى البخاري أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا يَحْفَرُونَ الْخَنْدَقَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ وَيَحْمِلُونَ التُّرَابَ عَلَى أكتافِهِمْ،
فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ حَاتًّا لَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ { اللَّهُمَّ
إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ } فَقَالُوا مَرْتَجِزِينَ مَجِيئِينَ لَهُ وَقَدْ نَشَطُوا :
نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا 15

وَفِي نَفْسِ الْغَزْوَةِ نَرَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِدُو مَعَ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَنْقَلِبُونَ التُّرَابَ حِينَ قَالُوا :
وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ آبِينَا
وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ { أَبِينَا أَبِينَا } 16 .

فَفِي الْحَدِيثَيْنِ السَّابِقَيْنِ بَجَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ اسْتَعْدَمَ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى تَنْغِيمٍ أَوْ
تَلْحِينٍ بَسِيطٍ فِي بَثِّ رُوحِ الْعَمَلِ وَالْجِهَادِ وَفِي تَنْشِيطِ الصَّحَابَةِ أَثْنَاءَ قِيَامِهِمْ بِعَمَلِ مُرْهَقٍ لِلْغَاشَةِ هُوَ حَفْرُ
الْخَنْدَقِ .

وَلَا بُدَّ هُنَا مِنْ تَقْرِيرِ حَقِيقَةِ مَهْمَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ إِنْكَارُهَا إِلَّا جَاهِلٌ مُعَانِدٌ، أَلَا وَهِيَ أَنَّ التَّعَنِّيَ بِالشُّعَارِ
إِذَا كَانَ بِصَوْتٍ حَسَنٍ وَبِنَغْمٍ مُتَسَقٍ يُوَثِّرُ فِي وَجْدَانِ أَيِّ إِنْسَانٍ بِإِلَّا شَكِّ، بَلْ وَيُوَثِّرُ فِي غَيْرِهِ مِنْ
الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ . وَلَا زَالَ . مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ لِإِبْلِهِمْ فِي السَّفَرِ
حَتَّى يَسْتَحْتَوِيهَا عَلَى السَّيْرِ وَالنَّشَاطِ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ . أَيْضًا . فِي أَسْفَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
نَفْسِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ يَجِدُو بِالرَّجَالِ، وَأَجْشَةَ يَجِدُو بِالنِّسَاءِ، وَكَانَ أُنْجَشَةَ حَسَنَ الصَّوْتِ،
فَحَدَا فَأَعْنَقَتْ الْإِبِلَ (أَيَّ جَدَّتْ وَأَسْرَعَتْ فِي السَّيْرِ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَا
أُنْجَشَةُ .. رُوَيْدًا سَوْفَكَ بِالْفَوَارِيرِ } يَقْصِدُ النِّسَاءَ 17 .

وَعَبْرٌ خَافٍ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ مُحْسُوسٌ لَدَى الْكُلِّ مِنْ تَأْتُرِ الصَّبِيِّ فِي مَهْدِهِ . وَهُوَ لَا فَهْمَ لَهُ وَلَا تَمْيِيزَ .
بِالصَّوْتِ الْحَسَنِ وَبِالنَّغْمِ الْجَمِيلِ الْمُتَسَقِ .

يَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ : وَأَمَّا الْأُوتَارُ وَسَائِرُ النِّعَمَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مَفْهُومَةً : فَإِنَّهَا تُوَثِّرُ فِي النَّفْسِ تَأْثِيرًا
عَجِيبًا، وَلَا يُمَكِّنُ التَّعْبِيرَ عَنْ عَجَائِبِ تِلْكَ الْأَتَارِ، وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالشُّوقِ وَلَكِنْ شَوْقٌ لَا يَعْرِفُ صَاحِبَهُ
الْمَشْتَقَ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَجِيبٌ، وَالَّذِي اضْطَّرَبَ قَلْبُهُ بِسَمَاعِ الْأُوتَارِ أَوْ الشَّاهِدِينَ وَمَا أَشْبَهَهُ لَيْسَ يَدْرِي إِلَى
مَاذَا يَشْتَقُ، وَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ حَالَةً كَأَنَّهَا تَتَقَاضَى أَمْرًا لَيْسَ يَدْرِي مَا هُوَ 18 .

15- راجع صحيح البخاري 1043/3

16- أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب المغازي : باب عزوة الأحزاب برقم (3795) .

17- أخرجه أحمد في مسنده برقم (13176) .

18- راجع إحياء علوم الدين للغزالي (مرجع سابق) 321/2

فإذا ما كان ذلك الأداء الحسن مرتبطاً بنصّ ديني كان وقعته في النفس أشدّ وأعظم وتأثيره في القلوب أكبر ؛ لما جُبلت عليه النفوس والفطر السليمة من حُبّ الدّين وحُبّ كلّ ما يتعلق به .
على أنّنا إذا رجعنا إلى الوراة قليلاً حين قدّم النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكّة مهاجراً إلى المدينة لوجدنا أنّ أهل المدينة بما فيهم النساء والأطفال قد عبّروا عن فرحتهم بقدومه صلى الله عليه وسلم بإنشاد الأشعار بصوتٍ عذبٍ مترنّم، فكان أن قالوا :

طَلَعَ الْبُدْرُ عَلَيْنَا مِنْ تَيْبَاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعٍ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ
جِئْتَ شَرَفْتَ الْمَدِينَةَ مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعٍ¹⁹

على أنّ الأمر لم يقتصر في تلك الحادثة . أقصد الهجرة . على إنشاد الأشعار والتّعني بها فقط دون استخدام آلات مساعدة على التّعني بهذه الأشعار بصورة حسنة جميلة تأسر القلوب وتؤثّر فيها ؛ فقد مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم ببعضِ المدينةِ فإذا هو بجوارٍ يضربن بدفّهنّ ويتعنينّ ويفلننّ :

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ يَا حَبْدًا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فسرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك وقال لهنّ { يَعْلمُ اللهُ إنيّ لأجُبكنّ }²⁰ .

وعبّر خافٍ على الجميع ما ورد في السُنّة من سماع النبيّ صلى الله عليه وسلم لجوارٍ يغنين قصائد خاصة ببيون بُعات، وعبّر خافٍ . أيضاً . ما ورد في السُنّة من الأمر بالضرب بالدفّ والغناء في الأفراح، إلا أنّنا قد أهملنا هذا الجانب ؛ إذ أنّ غايتنا هي استشراف العلاقة ما بين الكلمة كنصّ ديني والنغم كوسيلة لتوصيل جيّد للمعاني والأسرار التي تحتويها هذه الكلمة ..

ولذا .. فإننا نجد نصّاً دينياً غاية في الخطورة والأهمية والارتباط بحياة كلّ مسلم، ألا وهو الأذان ؛ حيث يسمعه المسلم خمس مرات في اليوم والليلة، ذلك الأذان الذي رآه الصحابي عبد الله بن زيد في رؤية منامية، فلما ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره أمره أن يلقنه ليلاً، وقد علّل النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله له { فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا }²¹، فالأذان هو دعوة من الله تعالى لعباده لكيّ يأتوا إلى بيئته ويتقرّبوا إليه بالصلاة، ولذا فإنّ اقتران تلك الدعوة بصوت جميل ندي ونغم رقيق شجيّ يؤثّر في المستمع ويجذب انتباهه ؛ الأمر الذي يجعله يُقبل على الله وعلى الصلاة، وفي هذا

19- راجع : النقات لابن أبي حاتم (دار الفكر - بيروت) 131/1 والرياض النضرة للمحبّ الطبري (دار الغربي

الإسلامي - بيروت) 480/1 وفتح الباري لابن حجر العسقلاني (دار المعرفة - بيروت) 261/7

وقال الحافظ العراقي أخرجه البيهقي في دلائل النبوة .. راجع تخريج أحاديث الأحياء (على هامش الإحياء) 302/2

20- أخرجه ابن ماجة في سنّته : كتاب النكاح : باب الغناء والدفّ (دار الفكر - بيروت) 612/1

21- أخرجه البيهقي في سنّته الكبرى (مرجع سابق) 399/1

دليل على اعتبار الشارع صلى الله عليه وسلم لكيفية أداء النص الديني والاجتهاد في تحسينه وتحميله وأدائه بصورة تؤثر في المتلقي، مع الوضع في الاعتبار قداسة ذلك النصّ والتعامل معه في إطار لا يُخرجه عن قداسته وجلاله، أو بصورة تجعل من النصّ خلفيّة هامشيّة للصوت والنغم، وإلا كان ذلك خروجًا عن مقاصد الشريعة وأدائها .

ولعلّ ما نشاهده اليوم في مساجد المسلمين من أداء للأذان بأصوات تنفر منها الطّباع السليمة وبأسلوب يقلق السامع ويوتّرّه هو واحد من الكثير من الأشياء التي خالف فيها دعاة التمسلف ووزارات الأوقاف في الكثير من مساجدها نصوص الشريعة ومقاصدها، ثمّ إنّ وزارة الأوقاف المصرية حينما أرادت أن تعالج هذا الأمر عاجلته بابتداع في الدين لا يجد له أصلًا ولا آثارًا من علم في الدين ؛ وذلك بما أسّموه " توحيد الأذان " وذلك بأن يؤدّن شخص واحد حسن الصوت ثمّ يبيث هذا الأذان في كلّ المساجد، ولو أنصفوا لوضعوا شروطًا وضوابط لكلّ من يقوم بمهمة الأذان : كأن يكون حسن الصوت، وأن ينطق الأذان نطقًا صحيحًا منضبطًا، وأن يؤدّيه بأسلوب رقيق جميل يؤثر في السامع، إلى غير ذلك من الشروط التي تضمّن خروج الأذان . الذي هو أحد أهمّ شعائر المسلمين . بصورة مشرّفة ومؤثّرة وحاوية لمقاصد الشريعة وأهدافها .

كانت هذه مقدمة . وإن طالبت بعض الشيء . تكشف لنا عن بعض الارتباط وثيق الصلة بين الكلمة والنغم بصفة عامة في القرآن الكريم والسنة النبويّة، كتبتناها لندلّل بها على أنّ ذلك الارتباط ليس ابتداءً ابتدعه الصوفية على غير أساس ؛ فكلّ النصوص السابقة تدلنا . بما لا يدع مجالًا للشكّ . على أنّ الكلمة وأدائها صنوان لا يفترقان ..

على أنّنا إذا ما عرّجنا على الصوفية وجدنا ذلك الارتباط في أوج كماله ومن كلّ جوانبه ..

وبادئ ذي بدء .. فإنّ الصوفية قد ربطوا ما بين الكلمة والنغم والصوت الحسن من ناحية وبين الخطاب الإلهي للمخلوقات في عالم الدّر حيث قال تعالى لهم { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } ؛ فهم يرون أنّ حالة النشوة والطرب التي تعترى السامع للنصّ الديني . سيّما إذا كان مُرتبطًا بأداء جميل مؤثّر . ما هي إلا نوع من التذكّر للخطاب الإلهي في عالم الدّر ؛ حيث انتشت الأرواح وطربت بذلك الخطاب، فإذا ما سمعت كلامًا يُدكّرُها بذلك حنّت إلى سماع الخطاب الإلهي فتحدّثت عندها تلك الحالة من الطرب واللذة والنشوة ..

فقد قيل للجنيّد : " ما بال الإنسان يكون هادئًا فيضطرب عند السماع ؟ " فقال : إنّ الله تعالى لما خاطب الدّر بـ { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } استغرقت عذوبة الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حركهم دكر ذلك 22 .

وقال أبو حامد الغزالي : إنّ القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر، وقد طُوِيَتْ فيها جواهرها كما طُوِيَتْ النار في الحديد والحجر وكما أُخْفِيَ الماء تحت التراب والمدر، ولا سبيل إلى استئثاره خفاياها إلا بقوادح من السماع، ولا مَنْفَذ إلى القلوب إلا من دهليز السماع ؛ فالنعمات الموزونة المستلذّة تُخْرِج ما فيها وتُظْهِر محاسنها أو مساوئها، فلا يَظْهَر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه، كما لا يَرشَح الإناء إلا بما فيه، فالسماع للقلب محكٌ صادق ومعيار ناطق، فلا يَصِل إلى نَفْس السامع إليه إلا وقد تَحَرَّكَ فيه ما هو الغالب عليه ²³ .

وقال : وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سرّ الله تعالى في مناسبة النعمات الموزونة للأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات، والبليد الجامد القاسي القلب المحروم من لذة السماع يَتَعَجَّب من التذاذ المستمتع ووجده واضطراب حاله وتَغْيِير لونه تَعَجُّب البهيمة من لذة اللوزينج، وتَعَجُّب العين من لذة المباشرة، وتَعَجُّب الصبي من لذة الرئاسة اتساع أسباب الجاه، وتَعَجُّب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه، ولكلّ ذلك سبب واحد، وهو : أنّ اللذة نوع إدراك، والإدراك يَستدعي مُدْرِكًا وَيَستدعي قوّة مدرّكة، فمن لم تَكْمُل قوّة إدراكه لم يُتَصَوَّر منه التلذذ ؛ فكيف يدرك لذة الطعوم من فَقْد الذوق ؟! وكيف يُدْرِك لذة الألحان من فَقْد السمع ؟! وكيف يدرك لذة المعقولات من فَقْد العقل ؟! وكذلك ذوق السماع بالقلب بَعْد وصول الصوت إلى السمع يُدْرِك بحاسة باطنة في القلب، فمن فَقَدها عدم . لا محالة . لذّته ²⁴ .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي : قال ابن قتيبة : حُكِيَ عن ابن جريج أنّه كان يَرُوح إلى الجمعة فيَمُرّ على مُعْضَنٍ فيَدُقُّ بابه عليه فيخرج فيجلس على الطريق ويقول : " عَنَّ " فيُعْغِي أصواتًا فتسيل دموعه على لِحْيَتِهِ ثُمَّ يَقول : إنّ من العِناء لَمَّا يُدْكِر الجَنّة ²⁵ .

على أنّه لا بُدّ لنا هنا من الإشارة إلى حقيقة مهمة، ألا وهي أنّ الصوت الحَسَن والأداء الجميل ليس محرّكًا في ذاته لِمَواجيد الصوفية . وإنّ كان قد يَحْرِّك غَيْرَهُم . وإمّا هو مُعِين ومُساعد على وصول ما احتوت عليه الكلمات من أسرار ومعانٍ إلى القلب المهيأ لاستقبالها والتفاعل معها ؛ يقول أبو سليمان الداراني : الصوت الحَسَن لا يُدْخِل في القلب شيئًا، وإمّا يُحْرِّك من القلب ما فيه ²⁶ .
ويقول السيد أحمد الرفاعي : إذا عَنّاهم الحادي يَسْمعون منه التذكار، فتعلو همّتهم في الأذكار ²⁷ .

23- راجع إحياء علوم الدين للغزالي (مرجع سابق) 292/2

24- المرجع السابق 304/2

25- راجع إيضاح الدلالات في سماع الآلات للنابلسي (مطبوع باسم : الموسيقى والغناء في ميزان الإسلام) بتحقيق

محمد عثمان الخشت (مكتبة المعارف الإسلامية - القاهرة 1984) / 76/

26- راجع : الرسالة التفسيرية (مرجع سابق) / 272 وإحياء علوم الدين للغزالي (مرجع سابق) 300/2

27- راجع السماع والوجد عن الصوفية لفارس محفوظ إمبابي (فوب للطباعة 2004) / 50/

ولذا فإنّ الصوفية قد تكلموا في الكثير من كتبهم عن السماع وآدابه وأسانيده وما يمتدّ به من أمور، وما السماع في واقع الأمر إلا الإنشاد أو التّعبيّ بأشعار تكشف عن أحوالهم ومواجيدهم وأذواقهم، فلا تكاد تخلو جلسة لهم من ذلك السماع الذي يكشف عن مدى عمق الارتباط بين الكلمة والنغم، وقد كانوا يتأثرون عند سماعهم ذلك على تفاوت في مظاهر ذلك التأثير ما بين بكاء أو نشوة أو غيبة أو صراخ أو تمائل أو غير ذلك من أحوالهم التي من الصعوبة بمكان الإحاطة بها ..
فقد سئل رويم بن أحمد عن المشايخ الذين لقيهم في السماع فقال : كالتقطيع إذا وقع فيه الذئب²⁸

وقد علّل رويم مواجيد الصوفيّة عند السماع بقوله : يشهدون المعاني التي تعزّب عن غيرهم، فتشير : "إليّ إليّ" فيتنعمون بذلك الفرح، ثم يقع الحجاب فيعود ذلك الفرح بكاءً، فمنهم من يخرق ثيابه، ومنهم من يصيح، ومنهم من يبكي ؛ كلّ إنسان على قدره²⁹ .

وقد روى أبو حامد الغزالي مناظرة حدّثت بين ابن مجاهد وأبي القاسم بن بنت منيع وأبي بكر بن داود، جاء فيها : ... قال ابن مجاهد : " ما تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر : أهو حرام ؟ " فقال ابن داود : " لا "، قال : " فإن كان حسن الصوت حرّم عليه إنشاده ؟ " قال : " لا "، قال : " فإن أنشده وطوّله وقصّر منه الممدود ومدّ منه المقصور أيجرم عليه ؟ " قال : أنا لم أقو ليشيطان واحد، فكيف أقوى ليشيطانين؟!³⁰

وقال أبو القاسم القشيري : ولا خلاف أنّ الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنّه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغيّر الحكم بأنّ يسمع بالألحان، هذا ظاهر من الأمر يوجب للمستمع توفّر الرغبة على الطاعات وتذكّر ما أعاد الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات، ويحمّله على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات مستحبّ في الدين ومختار في الشرع³¹ .

ولذا فإننا نجد صوفيًّا كبيرًا هو أبو مدين الغوث يتتقد من أنكر على الصوفية مواجيدهم حال سماعهم ؛ حيث يقول :

يُحَرِّكُنَا ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ عَنْكُمْ وَلَوْلَا هَوَاؤُكُمْ فِي الْحَشَا مَا تَحَرَّكُنَا
فَقُلْ لِلَّذِي يَنْهَى عَنِ الْوَجْدِ أَهْلَهُ إِذَا لَمْ تَدُقْ مَعْنَى شَرَابِ الْهَوَى دَعْنَا
إِذَا اهْتَزَّتْ الْأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللَّقَا نَعَمْ تَرْفُصُ الْأَشْبَاحُ يَا جَاهِلَ الْمَعْنَى

28- راجع الرسالة القشيرية (مرجع سابق) / 270

29- راجع : الرسالة القشيرية (مرجع سابق) / 266 وعوارف المعارف للسهروردي (مرجع سابق) / 144/5

30- راجع إحياء علوم الدين (مرجع سابق) / 294/2

31- راجع الرسالة القشيرية (مرجع سابق) / 260

أَمَا تَنْظُرُ الطَّيْرَ الْمُقْتَصِّصَ يَا فَتَى إِذَا ذَكَرَ الْأَوْطَانَ حَنَّ إِلَى الْمُعْتَى
وَيَفْرَحُ بِالْتَّغْرِيدِ مَا بِفَوَائِدِهِ فَيَطْرِبُ أَرْبَابَ الْعُقُولِ إِذَا غَنَى
وَيَرْقِصُ فِي الْأَقْفَاصِ شَوْقًا إِلَى اللَّقَا فَيَطْرِبُ الْأَعْضَاءَ فِي الْحَسَنِ وَالْمَعْنَى
كَذَلِكَ أَرْوَاحَ الْمُحِبِّينَ يَا فَتَى تُحَرِّكُهَا الْأَشْوَاقُ لِلْعَالَمِ الْأَسْنَى³²

على أننا نجد في التراث الصوفي استخدامًا وتوظيفًا للكثير من الألفاظ التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنغم والموسيقى؛ نجد ذلك جليًا. على سبيل المثال. في قول الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني: (وأعزف الحاني فيطرب عاشقي)³³ وقوله (أداعب أوتار القلوب فتنتلي)³⁴ وقوله (وزفرة الحال تُطربني وتُشجيني)³⁵.

ولعل تلك الحالة التي تستغرق السامع هي السبب الرحمة التي تنزل عند السماع كما حكى الجنيد حيث قال: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة؛ لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجودهم ويشهدون حقًا³⁶.

ولذا فلا غرابة إذا قيل فيه أنه حادٍ يحدو بأهله إلى مواطن القرب، وأنه بروق تلمع ثم تخمد وأنوار تبدو ثم تخفى، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها طرفة عين³⁷.

ويتقل لنا الشيخ عبد الغني النابلسي عن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قوله: إذا كان الذكر بنعمة لذيذة فله في النفس أثر كما للصورة الحسنة في النظر أثر³⁸.

كما يتقل لنا عن شهاب الدين أحمد بن غانم قوله: اعلم يا هذا أن السماع إنما هو عبارة عن الأصوات الحسنة والنغمات المطربة يصدر عنها كلام موزن مفهوم، فالوصف الأعم في السماع إنما هو الصوت الحسن والنعمة الطيبة، وهو ينقسم إلى قسمين: مفهوم: كالأشعار، وغير مفهوم: كأصوات الجمادات، وهي المزامير: كالشبابية وغيرها من أصوات الطيور المطربة، ولا قائل بتحريم الصوت الطيب المطرب من حيث هو صوت إلا ما جاء به الشرع المطهر في تحريم سماعه كالأوتار والملاهي³⁹.

-
- 32- السماع والوجد عن الصوفية لفارس محفوظ إمبابي (مرجع سابق) / 78
33- راجع ديوان شراب الوصل للشيخ محمد عثمان عبده البرهاني (القاهرة 1993 م) (الجزء الأول) / 3
34- المرجع السابق (الجزء الأول) / 11
35- المرجع السابق (الجزء الثاني) / 131
36- راجع: الرسالة القشيرية (مرجع سابق) / 264 وإحياء علوم الدين (مرجع سابق) / 294/2 وعوارف المعارف للسهروردي (مرجع سابق) / 144/5
37- راجع الرسالة القشيرية (مرجع سابق) / 272
38- راجع إيضاح الدلالات في سماع الآلات للنابلسي (مرجع سابق) / 62
39- المرجع السابق / 63

ولا غرابة فيما نقرأه في كُتُب الصوفية من كثرة سماعهم لقصائد القوم التي اشتملت على مواجيدهم، والتي تعطينا أبعاداً كثيرةً لِمَا يعانونه في تجربتهم السلوكية الوجدانية التي تفتح لنا آفاقاً لا متناهيةً من المعاني والأسرار والغوامض المكنونة في طيِّ كلامهم بصفة عامة وقصائدهم بصفة خاصة، والله درّ قائلهم :

لا يعرف الشوق إلا من يكابدهُ ولا الصبابة إلا من يعانيتها

وهذا ذو النون المصري يجتمع إليه الصوفية حين دخل بغداد ومعهم قَوْل (أي منشِد)، فابتدأ

القَوْل الإنشادَ فقال :

صغير هواك عَدْبِي فكَيْفَ به إذا احتَنَكَا
وأنت جَمَعْتَ في قَلْبِي هوىً قَدْ كان مشترَكَا
أما ترثي لمكتئِبٍ إذا ضَحِكَ الحَلِيَّ بَكِي ؟

فقام ذو النون وسَقَطَ على وجهه والدم يَقَطِرُ من جبينه ولا يَسْقُطُ على الأرض⁴⁰ .

ويَدُكُرُ لنا النابلسي أنّ ذلك السماع مندوب إليه من الشارع فيقول : وهو لِمَن عَلَبَ عليه حُبُّ الله تعالى والشوق إليه، فلا يُحَرِّكُ السماع منه إلا الصفات المحمودة وتضاعف الشوق إلى الله تعالى واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية والكرامات السَنِيَّةِ والمواهب الإلهية، فَمَن ظَهَرَ له ذلك فهو مندوب له مباح، وهذا القِسْمُ الثالث هو سماع الصوفية أهل الصدق والإخلاص في كُلِّ زمان، وهُم موجودون إلى يوم القيامة، حَفِظَهُم الله تعالى في أعمالهم وأحوالهم⁴¹ .

ولا بُدَّ من الإشارة هُنَا إلى أنّ رِقَّةَ الطبع عند الصوفية وشفافية أرواحهم قَدْ أثَّرتْ فيهم تأثيراً بالغاً جعلهم لا يَرَوْنَ محبوباً في الكون يَسْتَحِقُّ أن يُحِبَّ وأن تُذَكَّرَ فضائله إلا محبوبهم، لذا فإنَّهم لجأوا إلى تأويل كُلِّ ما نَظَّمه الشعراء غزلاً فيمَن أَحَبُّوا : كقول كُثَيِّرٍ عَزَّة :

رهبان مدين والذين عَهَدْتُم
لو يَسْمعون كما سَمِعْتُ كلامها
ويكفون قيس بن المَلَوَّح :

أهيم بليلى ما حبيبتُ وإنَّ أُمْتُ
وقَدْ سَمِعَ الشبلي قائلاً يقول :

أسائل عن سَلَمَى فهل من مُخَبِّرٍ
يكون له عِلْمٌ بها أين تَنزَلُ

40- راجع : الرسالة القشيرية /267 وإحياء علوم الدين (مرجع سابق) 320/2 وعوارف المعارف (مرجع سابق)

فَزَعَقَ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا فِي الدَّارَيْنِ عَنْهُ مُخْبِرٌ 42 .

ولعلنا نرى أصلاً لذلك عند عبد الله بن عمر ؛ حيث أَسْمَعَهُ رَجُلٌ بَيْتَ الحَطِيبَةِ :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مُوقِدٍ

فَقَالَ : " ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ، فلم يرَ أَحَدًا يَسْتَحِقُّ هَذَا المَدْحَ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ 43 .

فَلا غِرَابَةَ . إِذْ . عندما بَجِدُ تَأْتُرُ الصُّوفِيَّةُ بِكُلِّ مَا حَوْلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتٍ قَدْ تَشِيرُ لَدَيْهِمْ أَشْجَانًا وَمَوَاجِيدَ

كَامِنَةً فِي صُدُورِهِمْ ؛ فَهَذَا شَاعِرُهُمْ يَقُولُ :

نُوحَ الحَمَامِ عَلَى الغُصُونِ شَجَانِي وَرَأَى العُزُولَ صِبَابِي فَبَكَانِي

إِنَّ الحَمَامَ يَنُوحُ مِنْ أَلَمِ النُّوَى وَأَنَا أَنُوحُ مَخَافَةَ الرَّحْمَنِ

وهذا أبو الحسين النوري يقول :

رُبَّ وَرَقَاءٍ هَتُوفٍ فِي الضُّحَى ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ

ذَكَرْتُ إِلْفًا وَدَهْرًا صَالِحًا وَبَكَتْ حَزَنًا فَهَاجَتْ حَزَنِي

فُبُكَائِي رُبَّمَا أَرْقَاهَا وَبُكَاهَا رُبَّمَا أَرْقَانِي

وَلَقَدْ أَشْكَو فَمَا أَفْهَمَهَا وَلَقَدْ تَشْكَو فَمَا تُفْهَمُنِي

عَظِيمٌ أَنِّي بِالْجَوَى أَعْرِفَهَا وَهِيَ أَيْضًا بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي 44

وسَمِعَ الإِمَامَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ صَوْتِ نَاقُوسٍ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : " أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَذَا

؟ " قَالُوا : " لَا " قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ حَقًّا حَقًّا .. إِنَّ المَوْلَى صَمَدٌ يَبْقَى 45 .

وَرَوَى القَشِيرِيُّ أَنَّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيَّ دَخَلَ عَلَى أَبِي عَثْمَانَ المَغْرِبِيِّ وَوَاحِدٍ يَسْتَقِي المَاءَ مِنَ البَيْرِ

عَلَى بَكَرَةٍ ، فَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ : " يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ .. مَاذَا تَقُولُ البَكَرَةُ ؟ " فَقَالَ : " لَا أَعْرِفُ " ، فَقَالَ أَبُو

عَثْمَانَ : تَقُولُ : اللَّهُ اللَّهُ 46 .

وَلِذَا . أَيْضًا . قَالَ أَبُو عَثْمَانَ المَغْرِبِيُّ : مَنْ ادْعَى السَّمَاعَ وَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتِ الطَّيُورِ وَصَرِيرِ البَابِ

وَتَصْفِيقِ الرِّيحِ فَهُوَ فَاقِرٌ مُدَّعٍ 47 .

42- راجع عوارف المعارف (مرجع سابق) 149/5

43- راجع العقد الفريد لابن عبد ربه (دار الفكر - بيروت) 124/6

44- راجع إحياء علوم الدين للغزالي (مرجع سابق) 325/2

45- راجع الرسالة القشيرية / 271

46- المرجع السابق / 271

47- المرجع السابق / 265

على أنّ الصوفية . لانشغالهم بالبحث في مثالبهم ومعاييرهم وانصرافهم عن تتبُّع مثالب وعيوب الآخرين . كانوا يأولون كُلّ عتاب أو انتقاد يسمعونهُ وينسبونهُ إلى أنفُسهم ؛ فقد حَكى الغزالي عن بعضهم أنّهم كانوا مازين على دجلة بين البصرة والإيلة، وإذا بقصر حسن له منظره، وعليه رجل وبين يديه جارية تُعَيّ وتقول :

في سبيل الله وُدُّ كان مَيِّ لك يُبَدَل
كُلّ يوم تتلون غَيْر هذا بك أَجْمَل

فإذا شاب تحت المنظره بيده ركوة وعليه مُرْفَعَةٌ يسمع، فقال : يا جارية .. بحياة مولاك أعيدي :

كُلّ يوم تتلون غَيْر هذا بك أَجْمَل

فأعادته، فقال الفقير : " هذا . والله . حالي مع الله " وشَهَقَ شهقةً خَرَجَتْ بها رُوحه، فقال صاحب القصر للجارية : " أنتِ حُرّة لوجه الله تعالى "، وأَعْتَقَ جميع ممالِكهُ وتَصَدَّقَ بالقصر وجميع ماله، واتَّزَرَ بحرقه وارتدى أخرى ودَهَبَ على وجهه فلم يُرَ له أثر ولا سُمِعَ له خبر⁴⁸ .

من كُلّ ما سبق نستخلص النتائج التالية :

- * أنّ العلاقة بين الكلمة والنغم وطيدة وُجِدَ أثرها في القرآن الكريم وفي السُنَّة النبوية المطهّرة .
- * أنّ أداء النص الديني بأسلوب يجذب المستمع ويرقق قلبه هو أمر لا تأباه الشريعة ؛ بل تحضّ عليه وتندب إليه .
- * أنّ الصوفية كانوا أكثر الناس فهماً واستيعاباً للعلاقة بين الكلمة والنغم ؛ حيث كَشَفُوا عن أسرار تلك العلاقة وأسبابها وكيفياتها وآثارها، ممّا لا يجده عند غيرهم من طوائف المسلمين .
- * أنّ السماع عند الصوفية هو أحد مظاهر تلك العلاقة الحميمة بين الكلمة والنغم .

الهوامش :